إلى العمل – في مواجهة معاداة السامية! #1

متشابهان، لكن غير متماثلين: حول طبيعة العلاقة بين معاداة السامية والعنصرية

في ربيع عام 2025، أُقيمت ضمن مشروع "Connect – التنوّع عبر المشاركة" سلسلة فعاليات عبر الإنترنت لدى DGB-Bildungswerk Thüringen e.V (مؤسسة التعليم التابعة لاتحاد نقابات العمال الألماني في تورينغن). وقد جرى تدوين محاضرات هذه السلسلة ونشرها بعدة لغات.
تُلخِّص هذا النص محاضرة بيجان رَزافي ("مؤسسة Bildungsstätte Anne Frank" آنه فرانك التعليمية)

كلٌّ من العنصرية ومعاداة السامية هما شكلان من أشكال العداء للإنسان القائم على استهداف مجموعات بعينها. وتستندان إلى أحكام مسبقة متجذِّرة مجتمعيًا، وتحوِّلان مجموعات معيَّنة إلى أعداء، وتؤدِّيان منذ قرون إلى الإقصاء الاجتماعي والكراهية والعنف المُفضي إلى الموت. ولكن ما الفروق بين هاتين الأيديولوجيتين؟ أم أننا أمام الظاهرة نفسها مع اختلاف المجموعات المتأثرة فقط؟ النص التالي يقدِّم الإجابات.

نظرة موجزة: العنصرية

ظهرت العنصرية بصورتها الحالية خلال حقبة الاستعمار الأوروبي – وليس ذلك من قبيل المصادفة. إذ كان دور العنصرية هو إضفاء الشرعية على استغلال الشعوب المُستعمَرة، من خلال تصويرها على أنها أقلّ تحضُّرًا وغير مؤمنة و"غير مكتملة"، مقارنة بالأوروبيين المسيحيين. واستنادًا إلى هذه التصنيفات العنصرية، استمدت القوى الاستعمارية لنفسها مهمة تربوية: فوفقًا للقيم المسيحية-الأوروبية، كان ينبغي للشعوب الخاضعة للاستعمار أن تصبح "بشرًا كاملين" من خلال العمل. وبهذا وفّرَت العنصرية تبريرًا أخلاقيًا للقوى الأوروبية كي تُكرِه الشعوب المستعمَرة على العمل وتستنزف جهودها بلا رحمة. في القرن الثامن عشر، انتشرت في أوروبا، مع عصر التنوير والثورة الفرنسية، مبادئ المساواة في الحقوق المدنية وكرامة الإنسان العامة – وهي قيَم كانت تتعارض مع الاستغلال الاستعماري المستمر. وقد جرت مواءمة هذا التناقض وتبريره أخلاقيًا عبر رؤية عنصرية للعالم تُقسّم الشعوب إلى متحضّرة وأقلّ تحضّرًا، كما دُعمَت هذه الرؤية بادعاءات علمية (زائفة).

بعد تجربة النازية العنصرية المتطرفة، والدحض العلمي لمفهوم "الأعراق" البشرية، أصبح يُنظر إلى العنصرية منذ عام 1945 في المجال العام نظرة ازدراء متزايدة. ومع ذلك، لم تختفِ الأنماط الفكرية العنصرية من المجتمع، بل استمرت في الظهور بأشكالها القديمة وبأشكال مستحدثة. الجديد هو إحلال مصطلح "الثقافة" محلّ مصطلح "العرق".

لكن بعيدًا عن المصطلح المستخدم، لم يتغير شيء في منطق العنصرية: إذ ما تزال تُنسب إلى مجموعات بشرية صفاتٌ تبدو ثابتة، ويُزعم أنها نابعة من أصولهم (المفترضة). فبينما كانت أنماط التفكير والسلوك تُفسَّر سابقًا على أساس "العرق"، يُستخدم الآن مفهوم "الثقافة" لتفسير ذلك. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك الجدل العنصري الدائم حول ما إذا كانت "الثقافة الإسلامية" "والثقافة الألمانية" تتلاءمان: ففي الرؤية العنصرية، يُفترض أن المسلمين والألمان غير المسلمين يمتلكون خصائص ثابتة داخل كل مجموعة، مما يجعلهم غير قادرين على التعايش السلمي.

الخلاصة: العنصرية

يمكن فهم العنصرية بوصفها عقيدة تُجري تمييزًا هرميًا بين البشر، وتفترض أنّ **السمات البيولوجية** شرط أساسي لتحديد هذا التمييز. أما الدافع الأساسي وراء إقامة هذا النظام الطبقي فهو **إضفاء الشرعية على توزيع غير عادل للموارد**، والسيطرة عليه، وفرضه على جميع مستويات الحياة الاجتماعية.

استنادًا إلى:
Maisha-Maureen Auma: Rassismus. Eine Definition für die Alltagspraxis (2018)
"مايشا-مورين أوما: العنصرية. تعريف للممارسة اليومية (2018)"

نظرة موجزة: معاداة السامية

تستند معاداة السامية في شكلها الحديث بصورة رئيسية إلى العداء المسيحي لليهود في العصور الوسطى. إذ تُصوَّر اليهود كأعداء خفيّين داخل المجتمع نفسه، يهدفون إلى تدميره. ويستند هذا التصوّر إلى الرواية المسيحية التي تزعم أنّ "اليَهُود" كانوا مسؤولين عن صلب المسيح، وأنهم يمارسون منذ ذلك الحين أعمالٍ عنف خفية ضد المسيحيين، لتكرار "قتل الإله" رمزيًا.

ولهذا انتشرت عبر قرون طويلة صورٌ نمطية معادية للسامية، مثل أسطورة قتل الأطفال في طقوس دينية، أو الروايات التي تتحدث عن تسميم اليهود للآبار. كما استُخدِم تصوّر العدو الداخلي الذي من المفترض أنه يكره المجتمع المسيحي منذ القدم مرارًا وتكرارًا لتفسير ظواهر غير مفهومة، مثل الطاعون، وجَعْل اليهود كبش فداء لها.

إذا وردت في النص كلمة "اليهودي" / "اليهود" بين علامتي تنصيص، فإنها لا تشير إلى يهود حقيقيين، بل إلى الصورة المعادية للسامية عنهم.

في العصر الحديث، استمر الاعتقاد بأن اليهود هم مصدر الشرور، وبالتالي يشكّلون "النموذج المعاكس لكل ما هو خيِّر". وقد صوَّرت الدعاية النازية "الطبيعة الألمانية" بأنها مجتهدة، ومستقرة، ومتعلقة بالوطن، في مقابل "اليهود" الذين يُصوَّرون على أنهم دائمًا غير مستقرين: الذين يُفترض أنهم غير قادرين على العمل الشريف وينتقلون من "شعب مضيف" إلى آخر لاستغلاله كالطفيليات. كما أن فكرة المؤامرة والسعي للهيمنة العالمية ركن أساسي في معاداة السامية. ويُنسب إلى اليهود أنهم يقفون سرًا وراء هياكل القوى العالمية كالاستعمار والرأسمالية. ويُزعم أنهم يتخذون -من وراء الستار- جميع القرارات المهمة ويؤثرون في الساسة ووسائل الإعلام والعلوم. ووفقًا لتصورات معاداة السامية، فهم يوظفون أدوات السيطرة هذه كوسيلة لهدم الأنظمة الطبيعية المزعومة.

يمكن لهذه الأشكال من معاداة السامية أن تمتد لتشمل إسرائيل. فعندما تُصوَّر شخصيات سياسية إسرائيلية على أنها وحوش تشرب دماء الأطفال، أو عندما يُوعَد بأنّ القضاء على الدولة الإسرائيلية سيُنهي الرأسمالية العالمية، فإن ذلك لا يعدو أن يكون استمرارًا لأفكار معادية للسامية ترسّخت منذ القدم. ويتشارك كل ذلك في الفكرة القائلة إنّ العالم سيتطهَّر من الشر إذا لم يعد "اليَهُود" موجودين. ففكرة أن القوة اليهودية هي سبب الشر موجودة في جميع أشكال معاداة السامية.

الخلاصة: معاداة السامية

معاداة السامية هي **نموذج لتفسير العالم**. فالفكر المعادي للسامية يتيح آلية إسقاط: إذ تُلقى كل السلبيات في المجتمع والعالم على طرف واحد يُحمَّل المسؤولية – "اليَهُود". ويُصوَّر الخلاص من الشرّ في النهاية بأنه لا يتحقق إلا بالقضاء على هذا الشرير. لذلك تنطوي معاداة السامية دائمًا على **منطق يدعو إلى الإبادة**. وقد بلغ هذا المنطق ذروته في معسكرات الإبادة النازية، إذ اعتبرت الأيديولوجيا النازية أن إبادة اليهودي تعني "خلاص العالم". وبعد الهولوكوست، بدأ يظهر – كما حدث مع العنصرية – ازدياد واضح في نبذ معاداة السامية العلنية داخل المجتمع. ومنذ ذلك الحين، بدأت الروايات القديمة المعادية للسامية تظهر بصورة أكبر عبر **رموز سرية وأساليب تواصل غير مباشرة**، يُستبدل فيها لفظ "اليهودي" بعبارات مثل "عائلة روتشيلد"، و"نُخَب الساحل الشرقي"، أو "إسرائيل" بوصفها "اليهودي الجمعي".

المقارنة

إذن، ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين معاداة السامية والعنصرية – ولماذا من المهم معرفة ذلك؟ لا نحاول هنا تقديم إجابات شاملة عن هذه الأسئلة. ومع ذلك، فإن النظر إلى المستويات الثلاثة التالية يكشف الكثير:

التطبيع:

في كل من التفكير العنصري والمعادي للسامية، يتم تشكيل مجموعة غريبة ومجموعة الداخلية. تعتبر المجموعة الأخيرة "طبيعية"، في حين أن "الغرباء" يشكلون انحرافًا مزعومًا – بغض النظر عما إذا كان المقصود هم اليهود أو مجموعات ذات سمات عنصرية مثل "الأجانب". غير أن الفرق في النظر إلى المجموعات الغريبة هو أن اليهود – في التصوّر المعادي للسامية – يُعَدّون مختلفين جذريًا عن باقي البشر. وبهذا يُصوَّرون باعتبارهم "الآخرين الآخرين".

التسلسل الهرمي:

يرى الفكر العنصري أن المجموعة الداخلية متفوّقة، وأن المجموعة الغريبة أدنى مرتبة. إن التوصيفات العنصرية ليست صفات إيجابية: إذ تصف الأشخاص الواقعين تحت التمييز العنصري بأنهم غير متحضِّرين، وعنيفين، وبدائيين ومتخلِّفين، وبالتالي تُبرز المجموعة الداخلية بصفتها عقلانية، ورزينة، ومجتهدة ومتحضّرة، وغير ذلك. (وحتى الصفات التي تبدو "إيجابية" مثل "الإيقاع في الدم" تقوم على افتراض خصائص "عرقية"، وهي تُنتج صورًا نمطية وتنفي المهارات المكتسبة.) أما في معاداة السامية فالعلاقة أكثر تعقيدًا، لأنّ اليهودي يُنسب إليه عنصر قوي ذو سلطة. ويُصوَّر "اليهود" كمجموعة غريبة يُنظر إليها بوصفها متفوّقة ودونية في آن واحد: فهم متفوقون بسبب فكرة الهيمنة اليهودية العالمية القائمة على المؤامرة، والتي تقمع "الطيبين" (أي المجموعة الداخلية التي تُعدّ طبيعية). وهذا التصور يناقض علاقة السيطرة العنصرية. وفي الوقت نفسه ينسب خطاب معاداة السامية إلى اليهود دونية أخلاقية، إذ يصفهم بعدة صفات من بينها أنهم أشرار، وكسالى، واستغلاليون، وعديمو الضمير وغير أمناء.

الوظيفة:

يمكن لكلتا الأيديولوجيتين أن تؤدّيا وظائف معينة، مثل استخدامها لتبرير العنف. ومع ذلك، يوجد اختلاف وظيفي رئيسي: فالعنصرية تهدف إلى إضفاء الشرعية على الهيمنة؛ أي إلى تأمين التوزيع غير العادل للموارد وفرص الوصول على المستوى العالمي والمجتمعي من الناحية الأخلاقية. أما معاداة السامية فتُستعمل بوصفها تفسيرًا للعالم، إذ تعمل على إضفاء الطابع الشخصي على الهياكل المجردة وبالتالي "تفسيرها". ورغم هذا الاختلاف، من المهم التأكيد على أنه لا توجد مرتبة أعلى أو أدنى بين معاداة السامية والعنصرية! فكلتاهما بنيتان يمكن أن تؤديان إلى القتل، ويجب فهمهما ومواجهتهما معًا، إذ تتداخلان أيديولوجيًا في كثير من الأحيان.

يتّضح ذلك من خلال الطريقة التي تُعامِل بها هاتان الأيديولوجيتان أهدافها— أي الأشخاص الذين تم تصنيفهم على أنهم مجموعة غريبة. فعلى سبيل المثال، تزعم سردية المؤامرة اليمينية المتطرفة عن "الاستبدال الكبير" أن نُخبًا سرية تخطّط لاستبدال السكان في الدول الغربية، عبر توجيه هجرة أشخاص يُوصَفون بصفات عنصرية من بلدان الجنوب العالمي. وإن تصوير التهديد بأنه صادر عن مجموعة سرية قوية يُعدّ رمزًا معاديًا للسامية. ويُقرَن ذلك مع توصيف عنصري، يُصوَّر فيه اللاجئون ككتلة متجانسة بلا دوافع فردية. وبالتالي يتم خلق صورة خفية لعدو داخلي وآخر خارجي، ويُدمجان أيديولوجيًا ضمن سردية واحدة. وهذا نموذج نمطي في الرؤى اليمينية المتطرفة، التي تتسم في الوقت نفسه بالعنصرية ومعاداة السامية.

التأثيرات

إن الفروق المذكورة بين الأيديولوجيتين تؤدي كذلك إلى نتائج مختلفة في كيفية التعامل مع موضوعاتهما. ففي الفكر اليميني المتطرف يمكن إخضاع الأشخاص الموصوفين عنصريًا للسيطرة، وإعادة تثقيفهم، واستغلال قدرتهم على العمل. ويُعتبر العنف والإبادة **أداتين** لتحقيق تلك الغايات. غير أن هذا لا ينطبق على اليهود، إذ يصوّرهم المعادون للسامية بأنهم عاجزون عن العمل وفي الوقت نفسه ذوو نفوذ بالغ. ولذلك فإن العنف والإبادة المعاديين للسامية يحققان في الفكر اليميني المتطرف **غاية في ذاتهما**؛ وهي "تطهير" الأرض من كل ما هو يهودي.

مزيد من النصوص بلغات إضافية حول موضوع معاداة السامية

يمكنك العثور على جميع الموضوعات الأخرى المتعلقة بسلسلة الفعاليات والمنشورات على موقعنا:

www.dgb-bwt.de/wissen-fuer-alle

جميع النصوص متوفّرة **باللغات التالية:** العربية، والدارية، والألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، والبولندية، والروسية، والإسبانية، والفيتنامية.

V.i.S.d.P.: Renate Sternatz, c/o DGB-Bildungswerk Thüringen e.V., Schillerstraße 44, 99096 Erfurt

In Trägerschaft des:
DGB-Bildungswerk Thüringen e.V.

Im Rahmen des Bundesprogramms:
Initiative betriebliche Demokratiekompetenz

Gefördert durch das:
Bundesministerium für Arbeit und Soziales

Administriert durch das:
Bundesamt für Migration und Flüchtlinge

Oktober 2025

CONNECT